الشعائر والطقوس الجنائزية الرومانية

دة./ عمروس فريدة

معهد الآثار- جامعة الجزائر 2

يرجع الفضل في معرفة الطقوس والشعائر الجنائزية الرومانية إلى المصادر الأدبية اللاتينية والإغريقية، وأيضا إلى المصادر الإكونوغرافية القديمة التي تعرفنا على مراحل هذه الممارسات العقائدية انطلاقا من لحظة الموت (آخر نفس) إلى غاية وضع الجثة في مكان الدفن.

حيث تشير هذه المصادر إلى عدة معطيات هامة مثل الزمن الذي يستغرقه الحفل الجنائزي والمراسيم والحفلات الجنائزية، في روما أو في مختلف المقاطعات الرومانية.

1- المراسيم الجنائزية :

كانت الرتبة الاجتماعية عاملا هاما في سير الطقوس الجنائزية، حيث كانت الجثة تعرض للأقارب والأصدقاء وللعامة لعدة أيام متواصلة قبل دفنها أو حرقها. وتكون المدة الزمنية للعرض حسب المكانة الاجتماعية ووضعية الميت في المجتمع. فكان النبلاء مثلا يستفيدون من عرض طويل يمتد إلى عدّة أيام حتى يتمكن المواطن من إظهار حزنه لعائلة الميت وكان بإمكان الدولة الرومانية إعلان حداد عمومي بالنسبة للأشخاص المهمين، أما الفئة الشعبية فقد تدفن الجثة في اليوم الموالي للعرض. وكانت معظم الشعائر الجنائزية للأشخاص العاديين أو اللذين ينتمون إلى الطبقة الشعبية في محيط عائلي حيث

كانت تغمض عيون الميت ثم يقوم ابنه أو احد المقربين منه بتقبيله على الفم حتى يستقي نفسه الأخير ثم تنزع خواتمه، وينادي عليه بصوت مرتفع ثلاث مرات على فترات، وهذا ما يسمى باللاتينية «Conclamatio» ثم يغسل الجسم بماء الورد ويوضع في مدخل البيت «Atrium» فوق سرير جنائزي «Lectus funebrus» مزين بالأزهار، وكان يوجد بالقرب منه مذبح صغير «Accera» تحرق عليه العطور[1].

1 – Cohen (E) «Sépulcrum» Dictionnaire des antiquités grecques et romaines T III Paris 1918-P1238.

وبعد العرض تخرج الجثة بالأرجل أولا ، وينتقل الموكب الجنائزي إلى المقبرة او مدينة الأموات أين يوجد القبر أو المحطبة. وإذا استعملت طريقة الحرق، يفضل أن يكون ذلك ليلا لتفادي التجمعات الشعبية، وتدفق الناس خاصة بالنسبة للشخصيات الهامة. يقوم الأشخاص المرافقين للموكب بالغناء (Nénies) أثناء السير إلى المقبرة، ويلبسون الصوف بألوان مختلفة ويمتنعون من الاغتسال ليبدوا في هيئة وسخة. وتغطى رؤوس متقدمي الموكب بأوشحة. ويكون شعر النساء غير مصفف. ولا تقلم الأظافر ويكون مكان الدفن أو الحرق قد هيئ من طرف كاهن ليباركه بماء وغصن الرند أو الزيتون. [1]

وكانت العائلات الغنية تؤجر موسيقيين لقيادة الموكب. وكان بإمكان الأقارب وضع أقنعة من الشمع تحمل صور الموتى السابقين في العائلة أو تقدم تأبينية أثناء استهلاك المحطبة للجثة، في حالة الحرق، وكانت ترمى القرابين في شكل طعام، أو عطور، أو أدوات غالية على الميت. ويكون الحرق في نفس مكان الدفن أو في مكان خاص يسمى بـ «Ustrina» ويوضع الرماد في جرّة جنائزية، وتوضع بدورها في كوة «Ollarium» والتي توجد في قبور من نوع « Columbarium »، ولتسهيل عزل رماد الميت عن رماد الخشب، كانت الجثة تغطى بكفن من الأميونت. [2]

2- طريق الحرق :

تعتبر طريقة الحرق إحدى طرق الدفن التي مارسها سكان شمال إفريقيا قديما. وتعود جذورها إلى فترة فجر التاريخ. وتحمل هذه الطريقة نفس المميزات في كل المناطق حيث نجد في بعض الحالات العظام تحمل أثار الحرق، تكون محروقة جزئيا ، وفي أماكن أخرى لا يبقى من الجثة التي وضعت فوق المحطبة سوى الرماد الذي يجمع غالبا في جرار. ويستعمل مصطلح حرق أو ترميد بالنسبة لهذه العملية الخيرة، إذ تعتبر الأولى حرق جزئي أو غير كامل. ويبقى الغموض بين الطريقتين واضح. ويرتبط الحرق الغير كامل بالترميد إلاّ من خلال العنصر المدّمر للجثة، ألا وهو النار. ويبقى الهدف مختلفا ، فالطريقة الأولى تهدف إلى تدمير الأجزاء الرخوة، وفي الطريقة الأخرى إلى الحرق الكلي للجثة. [3]

1- Cohen (E) «Sépulcrum» Dictionnaire des antiquités grecques et romaines T III Paris 1918- P1240.

2- Cohen, Op-cit. P 1240.

3 Camps(G), Incinération dans encyclopédie Berbère, N XXIV 2001, P 3711.

وينتشر الترميد أو الحرق الكلي في الجزائر في مركزين يبعدان عن بعضهما. في الشمال الشرقي ظهرت طريقة الحرق كطقس أجنبي عن المنطقة هو من أصل إغريقي بوني واستمر إلى غاية القرنيين الميلاديين الأولين. ووجدت هذه الطريقة بكثرة على الساحل والمدن النوميدية التي تحمل طابع ثقافي بوني أين عثر بها على «Ustrinae» (مكان مخصص لحرق الجثث) بالقل وكيرتا. . . . وغيرها. تبنت هذه الممارسة الجنائزية عائلات ملكية ويعتبر ضريح الخروب (القرن الثاني ق-م) مثلا حيّا لهذه الطريقة.

أما في الشمال الغربي للجزائر، فطريقة الحرق كانت منتشرة أكثر، خاصة في المعالم الجنائزية التي ترجع إلى فترة فجر التاريخ، وكانت تحمل نفس المميزات التي كانت تحملها طريقة الحرق التي تبنتها النخبة المتطورة من المجتمع في الشرق. في الغرب تبدو الطريقة قديمة جدا حيث عثر الباحث Doumergue [1] على بعض الأدلة المادية التي تبين وجود حرق منظما تتمثل في كهف تيفريت الذي يرجع للعصر الحجري الحديث، ووجد نفس الطقس بجزيرة رشقون يعود إلى القرنيين السادس والخامس قبل الميلاد. وأيضا في الجنوب بمنطقة عين الصفراء وهذا ما يفسر الانتشار الكبير الملحوظ لطريقة الحرق في الأضرحة الجنائزية التي تعود إلى الفترة الرومانية لموريطانيا القيصرية، خاصة في مدينتي شرشال وتيبازا.

إذن طريقة الحرق في الغرب الجزائري بصفة عامة والمنطقة الوهرانية بصفة خاصة طريقة قديمة جدا ويمكننا اعتبارها تأثير إسباني ودخولها كان في فترة قديمة، لتصبح كطقس شعبي.

عندما بدأ الفنقيون يبحرون على سواحل شمال إفريقيا، كانت طريقة الحرق مستعملة منذ بداية تاريخ قرطاجة، ثم توقفت بعد القرن السابع قبل الميلاد، وعادت للظهور فجأة وأرفقت عودتها بتبني شعائر الآلهة كيريس «Ceres» كما تبين لنا من خلال أبحاث بنيشو سفر [2]. وازدهرت طريقة الحرق في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد خاصة. وبعد سقوط قرطاجة، سيطر هذا الطقس الجديد نهائيا على طريقة الدفن العادي، وفي نفس الوقت خارج الأراضي القرطاجية، والمناطق الموالية لها. فإن طريقة الحرق انتشرت في المدن النوميدية وفي المدن الساحلية، وأصبحت الطريقة الأكثر انتشارا

1- Doumergue (F), Inventaire préhistoire au musée demaeghit á Oran. 1936. P90.
2-Fevrier (PA), Guery (R), «Rites funéraires de Sétif» dans Ant Af. TXV Paris 1980. P 3714.

خاصة خلال القرون الأولى للاحتلال الروماني. ابتداء من منتصف القرن الثالث الميلادي عادت طريقة الدفن العادي، وسيطرت على باقي الممارسات الجنائزية الأخرى.

3- طريقة الدفن العادي :

ظهرت طريقة الدفن العادية من جديد في نهاية القرن الثاني للميلاد، بدءا من شرق الإمبراطورية الرومانية وتعممت في كل المدن الكبرى وكانت طريقة الدفن تمارس دائما خارج المدينة. عكس الأرياف التي تضم معظم المعالم الجنائزية، التي هي دائما على علاقة مباشرة بالمحيط في القرى والمدن الصغيرة المجاورة. وعادة ما تخصص هذه المعالم لدفن الشخصيات البارزة في المجتمعات المجاورة. ووجود التوابيت داخل هذه الأضرحة، يعني أن هذه الشخصيات تستعمل الطقوس والمعالم الجنائزية لإبراز ثرائها ونفوذها من خلال نوعية المواد المستعملة في نحت التوابيت ومواد بناء المعالم وزخارفها. وكانت بعض التوابيت من مادة الرخام، ومنحوتاتها تمثل صور الحياة اليومية، أو الشبه بين المتوفي وبعض أبطال الميتولوجيا الإغريقية أو الرومانية من ناحية الشجاعة والبطولة. أما البقية من الناس فكانت تكتفي إما بتابوت من الخشب أو الدفن في حفرة بسيطة. وغالبا ما نجد هذه التوابيت موضوعة فوق سطح أرضية الغرفة الجنائزية أو مدفونة بأكملها داخل التربة. وعادة ما يكون اتجاه الجثة جنوب الشرق.

وتشير المصادر اللاتينية والايكونوغرافيا أن استعمال التابوت او الصندوق الجنائزي مهما كان لم يكن على حساب الكفن بل تنضد له حتى ولو كان هذا الأخير يصعب تحديده الأثري نظرا لسهولة اندثاره[1].

وكان نقل الميت إلى مكان الحرق أو الدفن العادي يتم بواسطة نقالة، والتي يمكن أن تكون عبارة عن لوحة بسيطة أحيانا لها أذرع (أنظر الشكل).

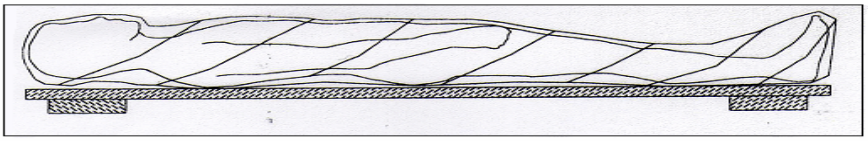

نقالة الميت تحمل مقبضين

1 – Lorans (S), «Le monde des morts de l'antiquité tardive à l'époque moderne», collection archéologique. Paris. 2007. P 218.

وفي حالة طريقة الدفن العادي فإن النقالة يمكن أن توضع داخل الحفرة، كما تدل عليه أثار المقابض التي لوحظت أحيانا عند رأس وأرجل الهيكل العظمي. عموما كانت الجثة توضع أفقيا على الظهر décubitus dorsale مثل ما لوحظ في عدة مقابر رومانية بالجزائر ونذكر على سبيل المثال المقبرة الشرقية لسطيف[1].

ونادرا ما نجد طريقة وضع الجثة على البطن أو الوجه على التراب وهذه الطريقة كانت تعتبر وضعية مذله، وكانت خاصة بالأشخاص الذين نفذ في حقهم القتل أو الإعدام ولقد عثر على بعض الأمثلة في بلاد الغال[2] وتعتبر وضعية الميت على الظهر وضعية قديمة وليست مسيحية لكن أعطيت لها قيمة رمزية، ويكون الميت ناظرا إلى السماء[3].

وبنفس الطريقة فإن التوجيه الصارم للجسم وتوجيه النظر نحو الشرق، يمثل الحالة الأكثر انتشارا في شمال إفريقيا عامة وفي الجزائر خاصة خلال القرن الثالث الميلادي، وكان هذا قبل انتشار المسيحية. وتنوعت وضعية الأذرع داخل حفرة القبر وكان ذلك نتيجة الاضطرابات التي يعرفها الجسم أثناء نقله ودفنه وانحلاله. وقد لاحظنا ثلاث وضعيات رئيسية ثابتة :

أولا : الأذرع ممدة على طول الجسم.

ثانيا : الأذرع مطوية على أسفل البطن، وهي الوضعية الأكثر انتشارا عند الوثنيين.

ثالثا : الأذرع منطوية على الصدر، وتميزت هذه الوضعية الأخيرة في المرحلة المسيحية.[4]

كما لاحظنا ظهور عادات أخرى والمتمثلة في وضع سكة أو قطع نقدية داخل فم أو بكفي الميت يستعملها لدفع حقوق المرور عبر النهر الذي يفصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات. والغريب في الأمر أن هذه العادات الوثنية الأصل استمرت ودامت عبر الزمن لمدة طويلة في القرى والأرياف الفرنسية حتى سنوات السبعينات من

---

1 -Fevrier (PA), Guery (R), «Rites funéraires de Sétif» dans Ant Af. TXV Paris 1980. P122.

2 - Tranoy (L), «La mort en Gaule romaine» dans collection archéologique. Paris. 2007. P115.

3 -Fevrier (PA), Gaspary (A), « La nécropole orientale de Sétif » Rapport préliminaire sur les fouilles effectuées de 1955 à 1964. Dans B. A. A N2 année 1966-67. P3.

4 – Tranoy (L), Op-Cit. P115.

القرن العشرين، حيث نسي المدلول الحقيقي لهذه العادة،ولكن تمسك المجتمع في الريف الفرنسي بعادات يتعدى تاريخها 2000 سنة من العمر واستمرار ممارستها.

وكانت الطقوس والشعائر الجنائزية تختلف من شخص لآخر ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى ومن رجل إلى امرأة حيث يذكر تيت ليفي[1] Tite live في هذا الصدد أن المرأة الرومانية أصبح لها الحق في التأبين الجنائزي مثل الرجل، ابتداءا من سنة 390 قبل الميلادي فقط، وتحقق ذلك عندما قبلت النساء منح جواهرهن كمساعدة في تسليم الفدية التي طلبها الغاليون Gaulois عند أول هجوم لهم على روما. وأخيرا يمكن القول بأن نظرة الروماني لظاهرة الموت نظرة غير سلبية، حيث يبرز ذلك من خلال الأثاث الجنائزي من لباس وأواني فخارية ومواد غذائية التي ترفق الميت للعبور إلى الحياة الثانية وهي آخر دليل لحب الأحياء للميت. وبقي الرومان يحافظون على علاقات خاصة وحميمية مع الميت. ويبدو أن الحزن المرتبط باختفاء شخصيات هامة من الطبقة الراقية كان بمثابة مصاب جلل لا تمحيه إلاّ طقوس وشعائر جنائزية فخمة.

وظهر ذلك جليا في القرن الثاني الميلادي عندما عرفت الإمبراطورية مرحلة ازدهار وتطور في كل الميادين.

وبناء على هذا خصص للميت معلم جنائزي لائق بمكانته الاجتماعية، والوظيفة الأساسية للعمارة الجنائزية هي إيجاد مقام لائق وأبدي للميت وذلك حسب المقاييس والمعطيات العقائدية والطقوس الجنائزية عبر مختلف الأماكن، خارج نطاق المدن والمجمعات السكانية.

ويمكن رؤية قسمين من هذه الفضاءات الجنائزية وهما :

I - قسم خاص بأنواع المقابر

II - قسم خاص بالمدفن (مكان الدفن يحتوي على قبر ومعلم)

القسم الخاص بأنواع المقابر : تنقسم المقابر إلى عدة أنواع :

1- **المقبرة** Sépulcrétum : مكان تجمع قبور خاصة بالأبطال «héroon».

2- **المقبرة المغلقة** : مكان أو فضاء خاص لدفن الأموات، تكون على شكل مساحة محددة ومحاطة بسور.

---

1 – Tite live Histoire romaine I, 343, 366,738.

3- **المساحة الجنائزية المغلقة** : خاصة بالدفن الفردي أو الجماعي لأفراد عائلة واحدة تربطهم صلة الرحم. [1]

4- **البستان الجنائزي :** تهيئة خاصة، حيث تكون المدافن محاطة بأشجار وأزهار. كان الرومان معجبون بهذا النوع من المقابر. [2]

القسم الخاص بالمدافن :

1- هو المكان أو الفضاء أو التهيئة التي تحتوي جثة الميت، وهذا المصطلح يقصد به المدفن العادي والمعلم الجنائزي المركب.

2- القبر : Sepulc (H) rum، وهو تهيئة جنائزية مخصصة لغرض دفن الميت، سواء كانت عادية مثل الحفرة البسيطة أو تحمل إضافات زخرفية.

3- المعلم الجنائزي : Monumentum، يستعمل هذا المصطلح، عادة لتصنيف الأنواع المعمارية الجنائزية المتطورة لغرض استدلالها للدفن المتعدد (معالم عائلية) وهي عادة تظهر بشكل ومقاسات ضخمة، نستطيع رؤيتها من مسافات بعيدة.

استعملت كلمة «Mausolum» بمعنى ضريح أو معلم جنائزي. وأخذ قدماء الرومان تسمية «Mausolum» من المعلم الجنائزي الكبير والقائم بمدينة يونانية أليكرناس «Halicarnasse» بقرار من ملكة Carie التي تدعى بـ أرتميس من أجل تخليد ذكرى زوجها موزول «Mausole» وكان ذلك سنة 355 ق.م ليبقى اسمه في ما بعد مشاع على كل المعالم الجنائزية. [3]

فبعض الأنواع لا تدخل في نطاق العمارة بل في نطاق الطقوس الجنائزية، ذلك شأن التابوت الذي يحوي الجثة، والذي يظهر في بعض الحالات بزخارف ومقاسات كبيرة.

1- التابوت : Sarcophagus : يعني المصطلح "آكل الجثة"، فهو صندوق من الحجارة المتنوعة، وعادة ما يحمل زخارف ومنحوتات مختلفة.

1- Gouves (R), Architectures funéraires», Dictionnaire méthodique

2- Ibid

3- Cagnat (R). , Chapot (V), Manuel d'archéologie romaine, T. 1, Paris, 1962, P. 342.

2- القبر الجماعي : FAMILIARUM SEPULCHRUM، يمكن للقبر أن يستعمل أكثر من مرة.[1]

3- القبر التذكاري : Cenotaphium، يمكن لمعلم جنائزي أنه لا يحمي جثة، حتى ولو كان يشبه قبر. يسمى بقبر تذكاري.[2]

4- قبر البطل : Heroun monumentum، ويكون على شكل ضريح ذو مقاسات معتبرة، خاص بالأبطال أو الأشخاص المعتبرة في المجتمع.[3]

أنظر صور الأضرحة التالية.

ضريح قصر الأحمر

ضريح صومعة الجازية

ضريح عائلة لوليوس Lollius

ضريح أقبو

1- Cagnat (R). , Chapot (V), Op. cit
2- ibid
3- ibid

لكن الأمور اختلفت ابتداءا من القرن الثالث الميلادي حيث ظهر الاضطهاد والاضطراب في كل النواحي، وفي خارج الإمبراطورية تهدد أمنها واستقرارها، بعد الرخاء والازدهار الذي عرفته من قبل، حيث تغير دورها من دور هجومي إلى دفاعي، حيث قامت بعض الشعوب الغير رومانية ومنها الإفريقية باختراق الليمس. وبذلك اضطرت الإمبراطورية إلى إدماج هذه الشعوب والقبائل ضمن الجيش الروماني وهذا ما سمح بظهور مزايا حضرية جديدة في المجتمع اعتنقها المجتمع الروماني، ونذكر على سبيل المثال طقس حرق الجثة، ومختلف طرق دفنها.

بيبليوغرافيا :

1- Titre Livre, histoire romaine I, 343 ,366, 738.
2- Camps (G), «Incinération», Dans encyclopédie berbère N XXIV, 2001.
3- Cohen (E) «Sépulcrum» Dictionnaire des antiquités grecques et romaines T III Paris 1818.
4- Doumergue (F), Inventaire préhistoire au musée demaeghit á Oran. 1936.
5-Fevrier (PA), Gaspary(A), « La nécropole orientale de Sétif » Rapport préliminaire sur les fouilles effectuées de 1955 à 1964. Dans B. A. A N2 année 1966-67.
6- Fevrier (P. A), Guery (R), «Rites funéraires de Sétif» dans Ant Af. TXV Paris 1980.
7- Lorans (S), « Le monde des morts de l'antiquité tardive à l'époque moderne », collection archéologique. Paris. 2007.
8 – Tranoy (L), «La mort en Gaule romaine» dans collection Archéologique. Paris. 2007.